مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

العصر الذي عاش فيه الإمام أبي السعود

الباحثة

مروة على محمد إسماعيل

مقدمة:

أحمد الله الذي رفع العلمَ وأهلَه، وخفض الراضي بالجهلِ وجهلَه، ونصب الميزان بالقسط وأقام عدله، وأُصلي وأسلم علي رسوله المصطفي، الذي علم الجهال وهدي الضلال، وعلي آله وأصحابه ذوي الأوجه الصباح والألسن الفصاح، وأسلِّم تسليماً كثيرا الآن وقبل وبعد، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

أمـــا بعـــد

فإن من أهم علوم الشريعة علم أصول الفقه ؛ فبواسطته تعلم الأحكام، ويعرف به الحلال من الحرام، ويعلم مراد الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، كما يعلم شمول هـــذه الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان.

و كان هـــذا العلم محط نظر العلماء المدققين الذين فهموا نصوص الشريعة، واستوعبوا دلالتها، و قد اتضح ذلك من خلال مصنفاتهم العلمية التي بين أيدينا، ومن هـــؤلاء الأعلام، الإمام أبو السعود العمادى المتوفى سنة (٩٨٢ه) صاحب التفسير المسمى "" إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ككونه مفسراً وأصولياً، على الرغم من أنه لم تكن له كتب أصولية مستقلة في علم الأصول، إلا أنه ذكر كثيراً من الآراء الأصولية في تفسيره، ومن ثم كانت الرغبة عندي شديدة في استخراج هـــذه الآراء وترتيبها وفق الأبواب الأصولية ليكون ذلك عنواناً لرسالتي في مرحلة الماجستير ألا وهو:

"الآراء الأصولية للإمام أبي السعود المتوفى سنة (٩٨٢ه) وأثرها في تفسيره" من سورة الفاتحة إلى سورة الأعراف جمعاً وتوثيقاً ودراسة.

أهمية الموضوع :

وتكمن أهمية هــذا الموضوع في عدة نقاط:

١) أن هــذا الموضوع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بكتاب الله عز وجل وهو ما يزيد من أهميته.

٢) أن هــذا الموضوع يكشف عن مدى علاقة علم أصول الفقه بعلم التفسير، ويبين تكامل علوم الشريعة، وأن من يقوم بتفسير كتاب الله يحتاج إلى تعلم أصول الفقه.

٣) أن هــذا الموضوع سيجمع بعضا من الآراء الأصولية للإمام أبى السعود في كتاب واحد على أمل إن شاء الله أن يقوم مجموعة من الباحثين باستكمال هــذه الآراء في كتاب أصولي مستقل منسوب إلى الإمام أبى السعود.

أسباب اختيار الموضوع:

١- القيمة العلمية لكتاب "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " فهو مصنف قيم في تفسير القرآن الكريم،احتوى فوائد جمة سواء في مجال الفقه أو الأصول أو اللغة أو ما يتعلق بمباحث علوم القرآن،و ما استرعى انتباهي هــو احتواؤه على مباحث أصولية هــامة تشد انتباه كل دارس لهذا الفن.

٢- وجود عدد غير قليل من الآراء الأصولية في هــذا التفسير،خاصة الجزئية التي من سورة الفاتحة إلي سورة الأعراف .

٣- يعتبر الإمام أبو السعود رحمه الله من أئمة المذهب الحنفي المبرزين فيه، فأردت من خلال هــذه الدراسة أن أتبين حياة علم من أعلام هــذه الأمة،وإبراز دوره في الإرث الحضاري والعلمي الذي تركه لنا أمثاله رحمه الله خاصة في المباحث المتعلقة بعلم أصول الفقه التي تعرض لها في تفسيره.

٤- أن هــذا الموضوع يمكنني من الاطلاع على قدر كبير من أمهات هــذا العلم والتعرف على مناهج وأساليب العلماء في علمي التفسير وأصول الفقه.

الدراسات السابقة :

لم أقف على من أفرد هــذا الموضوع ببحث مستقل، مما دفعني إلى دراسته واستخراج هــذه الآراء من هــذا التفسير، ولكن هــناك دراسات تتعلق بهذا التفسير من نواحٍ أخرى مثل الجانب النحوي واللغوي في التفسير، أيضا القراءات القرأنيه فيه، ومنهج المؤلف في تفسيره، ورسائل أخرى ليست لها علاقة بعلم الأصول في هــذا التفسير فرغبت في جمع أراء الإمام الأصولية.

إن المنهج الاستقرائي التحليلي المقارن هــو الذي التزمته في إعداد هــذا البحث وتلخص عملي فيه فيما يلي:

١- استخراج الآراء الأصولية من كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مع ترتيب هــذه الآراء والتي يتألف منها موضوع البحث وفق الأبواب الأصولية.

٢- دراسة هــذه الآراء دراسةً تحليلية مقارنة، بذكر تعريف الرأي، وتحرير محل النزاع فيه ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، مع ذكر مذاهب العلماء في حجيتها، ودليل كل مذهب، مع مناقشة دليل من ظهر لي ضعف مذهبه في المسألة على قدر المستطاع، ثم اذكر الراجح في المسألة .

٣- عند ذكر مذاهب العلماء في المسألة، أقوم بذكر نص من كلام كل مذهب إن شاء الله لبيان صحة ما نسب للمذهب.

٤- رجعت في تقرير الآراء والمسائل الأصولية وتحقيق المذاهب فيها وتقرير الأدلة ومناقشتها إلى عدد كبير من المصادر والمراجع الأصولية على اختلاف طرقها ومذاهبها.

٥-أبين رأى الإمام في تفسير الآية.

ولستُ أزعمُ قَصَبَ السبق في ذلك:فما وصلتُ إليه في هــذا البحثِ ما هــو إلا نتاجَ لأقوالِ علماءٍ فضلاء، نهلتُ من موردِ مائِهم العذب واستزدتُ من علمهم وعملِهم، فاقتفيتُ أثرَهم، ونهجتُ منهجَهم، ناقلة لأقوالِهم، ذاكرة لمذاهبِهم، وما استدلّ به كلٌ منهم لمذهبه، مرجحة مذهبَ من قوىَ دليلُه و ثبتت حجُته.

خطة البحث:

وكان عملي في هــذا البحث إن شاء الله تعالى وفق الخطة الآتية، المشتملة على مقدمة وقسمين وخاتمة.

أما المقدمة فتضمنت الافتتاحية،وأهمية الموضوع، وأسباب اختيار البحث، ومنهجي في البحث، والدراسات السابقة.

وأما القسم الأول وهو القسم الدراسي ويتناول:

حياة الإمام أبي السعود وتفسيره، ويشتمل على ثلاثة مطالب :

<u>المطلب الأول:</u>

الحقبة التاريخية التي عاش فيها الإمام أبو السعود :

ويشتمل على فرعين هــما :

الفرع الأول:الحالة السياسية في عصر الإمام أبي السعود.

الفرع الثاني: الحالة الاجتماعية والعلمية في عصره.

المطلب الثاني:

التعريف بشخصية الإمام أبي السعود :

ويشتمل على ثلاثة فروع :

الفرع الأول:اسمه ولقبه وولادته ونشأته.

الفرع الثاني: شيوخه وأقرانه و تلاميذه.

الفرع الثالث: مكانته وآثاره العلمية ووفاته رحمه الله وثناء العلماء عليه

المطلب الثالث:

في كتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم :

ويشتمل على ثلاثة فروع:

الفرع الأول:أهمية الكتاب وقيمته العلمية

الفرع الثاني:منهج الإمام أبي السعود في كتابه وطريقته في التفسير

الفرع الثالث:المصادر التي استقى منها كتابه.

وأما القسم الثاني وهو القسم الموضوعي ويتناول :

الآراء الأصولية للإمام أبى السعود، ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

أراء الإمام أبي السعود الأصولية في الحكم الشرعي:

ويشتمل على مبحث:

المبحث الأول:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالتكليف: ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تكليف المعدوم

المطلب الثاني:التكليف بما لا يطاق

المطلب الثالث: مخاطبة الكفار بفروع الشريعة.

الفصل الثاني :

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالأدلة :

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول:أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالكتاب

ويشتمل على مطلبين

المطلب الأول: الزيادة على النص بخبر الواحد.

المطلب الثاني: الأسماء الشرعية واللغات .

المبحث الثاني:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالسنة

ويشتمل على مطلب واحد :

المطلب الأول: حجية خبر الآحاد

المبحث الثالث:

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالإجماع

ويشتمل على مطلب واحد وهو: حجية الإجماع.

المبحث الرابع:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالقياس

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول: حجية القياس.

المطلب الثانى: أن الأصل في الأشياء الإباحة

المبحث الخامس:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالأدلة المختلف فيها

ويشتمل على مطلب واحد:

المطلب الأول: العمل بشرع من قبلنا.

الفصل الثالث :

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بدلالات الألفاظ، ويشتمل على ثمانية مباحث :

المبحث الأول:

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالنسخ ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف النسخ.

المطلب الثاني: جواز النسخ ووقوعه في الشريعة.

المطلب الثالث: نسخ الكتاب بالسنة .

المطلب الرابع: نسخ الكتاب بخبر الواحد

المبحث الثاني :

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالبيان

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول: بيان القرآن بالقرآن

المطلب الثانى :. المجمل قبل ورود البيان.

المطلب الثالث :بيان مجمل الكتاب بالسنة

المطلب الرابع :تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة.

المبحث الثالث :

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بمسائل الأمر،

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة وضع صيغة الأمر

المطلب الثاني: اشتراط العلو في الأمر

المطلب الثالث: هــل الأمر للفور أم للتراخي ؟

المطلب الرابع: أن الأمر بعد الحظر للإباحة

المطلب الخامس:أن الأمر بالشئ مستلزم للنهى عن ضده.

المبحث الرابع:

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالنهى ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول:الآراء الأصولية المتعلقة بالنهى،ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: دلالة صيغة النهى "لا تفعل ".

المطلب الثاني: أن النهى عن الشئ مستلزم للأمر بضده.

المطلب الثالث: أن النهى في العبادات يقتضى الفساد .

المبحث الخامس :

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالعموم ويشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول:أن كلمة جميعاً مؤكدة لما فيه من العموم.

المطلب الثاني:أن اسم الجمع المحلى باللام يفيد العموم.

المطلب الرابع:النكرة الموصوفة بصفة عامة

المطلب الخامس: أن عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب.

المطلب السادس:نفى المساواة بين الشيئين

المطلب السابع: الخطاب الخاص بالرسول عليه الصلاة والسلام هــل يتناول الأمة ؟

المبحث السادس :

أراء الإمام الأصولية التي تتعلق بالخصوص ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: العموم هــل يخص أم لا ؟

المطلب الثاني:تخصيص الكتاب بالكتاب.

المطلب الثالث: الاستثناء بنوعيه.

المبحث السابع:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بالعطف وحروف المعاني ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الفاء للترتيب عنده.

المطلب الثاني: ثم للتراخي الرتبى عنده.

المطلب الثالث: إفادة "إنما " للقصر..

المبحث الثامن:

أراء الإمام الأصولية المتعلقة بباقى مباحث الدلالات، ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول: دلالة العبارة والإشارة والنص

المطلب الثاني:دلالتا المفهوم والمنطوق

الخاتمة

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية والآثار

فهرس الأعلام

فهرس الفرق والبلدان

المصادر والمراجع التي رجعت إليها

فهرس موضوعات الرسالة

القسم الأول

وهو القسم الدراسى :

وفى هــذا القسم تكلمت عن العصر الذى عاش فيه الإمام أبو السعود وذلك في مطلب واحد وا وذكرت فيه الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والعلمية في عصر الإمام، وأيضا عرفت بشخصية الإمام أبى السعود وذكرت نبذة عن حياته، وعن أهمية كتابه .

المطلب الأول:الحقبة التاريخية في عصر الإمام أبى السعود، ويشتمل على فرعين:

الفرع الأول:الحالة السياسية التى عاش فيها الإمام أبى السعود.

الفرع الثانى:الحالة الاجتماعية والعلمية في عصره.

<u>المطلب الثاني</u>: التعريف بشخصية الإمام أبي السعود: ويشتمل على ثلاثة فروع :

الفرع الأول:اسمه ولقبه وولادته ونشأته.

الفرع الثانى:عقيدته ومذهبه.

الفرع الثالث:شيوخه وأقرانه و تلاميذه.

الفرع الرابع: مكانته وأثاره العلمية

الفرع الخامس: ووفاته رحمه الله وثناء العلماء عليه.

<u>المطلب الثالث:</u>

في كتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم :

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

الفرع الأول: أهمية الكتاب وقيمته العلمية

الفرع الثاني: منهج الإمام أبي السعود في كتابه وطريقته في التفسير

الفرع الثالث: المصادر التي استقى منها كتابه.

ونتكلم فى هــذا القسم عن عصر الإمام وذلك فى مطلب واحد يتلخص في الحالة السياسية.

المطلب الأول:

الحقبة التاريخية التي عاش فيها الإمام أبو السعود:

البحث عن شخصية هــذا العالم الجليل، تتطلب البحث عن العصر الذى نشأ فيه، بل والعوامل التى أحاطت به، سواء كانت هــذه العوامل سياسة أم اجتماعية أم ثقافية، إلى غير ذلك من الأمور التى ينبغى أن نقف عليها، فهذه الأمور تسهل على الباحث كشف النقاب عن الشخصية التى يراد معرفتها والوقوف على حقيقتها، وإبراز آرائه العلمية من خلال دراسته لعصره، وكشف جوانب حياته، ومدى تأثره بالمجتمع الذى أحاط به، فالعالم فى البداية إنسان يتأثر بمن حوله ويؤثر فيهم، والإمام أبو السعود نشأ فى نهاية القرن التاسع الهجرى، ولا يخفى على أحد ما كان للدولة العثمانية من قوة وعظمة ومجد فى هــذا العصر، ونحن أمام عالم زاهد، بلغ رتبةَ الاجتهاد، فجدير بالباحث أن يقفَ عند دراسة هــذا العالم وقفةَ إجلالٍ واحترام قبل أن تكونَ وقفةَ بحثٍ واستقصاء.

وهذا المطلب يقتضى أن أتكلم عن الحالة السياسية لنهاية القرن التاسع الهجرى وبداية القرن العاشر الهجرى الذى عاش فيه أبو السعود.

الفرع الأول :

الحالة السياسة فى عصر الإمام أبي السعود

عاش الإمام أبو السعود فى نهاية القرن التاسع الهجري، وأوائل القرن العاشر الهجري، وهذه الفترة هــى التى تعنينا، وإن كانت هــذه الفترة لا يمكن فصلها عن الفترات السابقة واللاحقة، والناظر فى هــذه الفترة التى عاش فيها الإمام أبو السعود يجد أنها عجيبة؛ لأن هــذه الفترة كانت ذهبية بالنسبة للعقلية مع ما أصيبت به الدولة من ضعف وفتور فى نهاية هــذه المرحلة.

الخلفاء العثمانيون :

تداول الحكم فى تلك الفترة أربعةٌ من الخلفاء هــم: بايزيد الثانى من سنة ٨٨٦ هــ ٩١٨ هــ (١٤٨١ ١٥١٢م)، سليم الأول من سنة ٩١٨ هــ ٩٢٦ه، (١٥١٢ م١٥٢٠) سليمان الأول من سنة ٩٢٦ه ٩٧٤ه (١٥٢٠ ١٥٦٦م)، سليم الثانى من سنة ٩٧٤ هــ ٩٨٢ هــ (١٥٦٦ ١٥٧٤م).

وإذا علمنا قوة وعظمة الدولة العثمانية فى تلك الفترة، فمن تمام القول أن نعرف بالخلفاء العثمانيين الذين عاصرهم الإمام أبو السعود.

فأول من عاصره أبو السعود من الخلفاء هــو: بايزيد الثانى

و يُمكن تقسيم هــذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة ١٥٦٦م، وحقبة شهدت بأغلبها ركودًا سياسيًا وعسكريًا، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد بدأت هــذه الفترة مع تولية سليم الثانى شئون البلاد سنة ١٥٦٦م.

<u>بايزيد الثاني</u> هــو:بايزيد خَان بن مُحَمَّد بن مُرَاد بن مُحَمَّد بن بايزيد،ولد سنة ٨٥٥ خمس وَخمسين وَثَمَانمِائَة ولى السلطنة بعد وَالده سنة ٨٨٦ وعظمت سلطنته وافتتح عدَّة قلاع لِلنَّصَارَى وَكَانَ السُّلْطَان بايزيد سُلْطَانا مُجَاهدًا مثاغرا مرابطاً محباً لأهل الْعلم محسناً إلِيهِم وَمَات سنة ٩١٨ ثَمَان عشرَة وَتِسْعمِائَة [١]، حيث توفي في مدينة ناپولي، ونقل جثمانه فيما بعد إلى بورصة ودُفن فيها[٢].

ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (٩١٨ ٩٢٦ه / ١٥١٢ ١٥١٩م) في ١٨ صفر ٩١٨ه الموافق١٢٥ إبريل ١٥١٢م وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه.[٣]

<u>السلطان سليم الأول</u>:السلطان سليم بن بايزيد بن مُحَمَّد بن مُرَاد بن مُحَمَّد بن بايزيد بن مُرَاد بْن أورخان بن عُثْمَان الغازي سُلْطَان الروم وَابْن سلاطينها ولد سنة ٨٧٢ اثْنَتَيْنِ وَسبعين وثمان مائَة وَاسْتولى على جَمِيع مَا كَانَ تَحت يَد أَبِيه[٤]، ولي السلطنة سنة ٩١٨ وفتح بلاد العرب سنة ٩٢٢، وأنشأ الجامع بصالحية دمشق. ومات سنة ٩٢٦.[٥]

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد اللهــ الشوكاني، دار المعرفة بيروت١٦١/١، تاريخ الدولة العلية العثمانية، لمحمد فريد (بك) ابن أحمد فريد (باشا)، تحقيق:إحسان حقي، دار النفائس، بيروت – لبنان،ط١، ١٤٠١ ١٩٨١، ١٨٠/١

(٢) المرجع السابق، ١٨٠/١:١٨٢، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١٤١٩،١ هــ ١٩٩٨ م، ٨٠/٤

(٣) الدولة العُثمانية عَوَامل النهــوض وأسباب السُّقوط، لعَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر،ط١، ١٤٢١ هــ ٢٠٠١ م ١٧٥/١، والتاريخ الإسلامي منذ عهــد آدم عليهــ السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر لأحمد معمور العسيري،مكتبة الملك فهــد الوطنية – الرياض،ط١، ١٤١٧ هــ ١٩٩٦ م،٣٣٠/١

(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكانى،٢٦٥/١

(٥) ديوان الإسلام،لشمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي،تحقيق :سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١،١٤١١ هــ ١٩٩٠ م٨/٣

أحدث السلطان سليم الأول تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي[٦].

قرر السلطان سليم أن يوحد الأمة الإسلامية تحت النفوذ العثماني للوقوف في وجه التقدم الصليبي،وانتصر على الدولة الصفوية (الشيعية)، ودخل عاصمتها تبريز عام ٩٢٠هـ وأيضا قضى على وجود المماليك في الشام في معركة (مرج دابق) بحلب سنة ٩٢٢هـ، وقتل السلطان الملوكي قنصوه الغوري،ثم هـزم المماليك في مصر في معركة (الريدانية) قرب القاهرة سنة ٩٢٣هـ وقتل حاكمهم طومان باي فأنهي بذلك دولة المماليك[٧].

تنازل له الخليفة العباسي في القاهرة عن الخلافة في نفس العام، فأصبح السلطان العثماني سليم خليفة المسلمين منذ ذلك اليوم.[٨]

السلطان سليمان القانونى ٩٢٦ ٩٧٤هـ/١٥١٩ ١٥٦٦ م: السلطان سليمان القانونى ٩٢٦ ٩٧٤هـ/١٥١٩ ١٥٦٦ م: السلطان سليمان الأول القانوني ابن السلطان سليم خان بن بايزيد خان العثماني، ولد سنة٩٠٠ه، وكان أديباً، له ديوان شعر تركي، عني بتطبيق القوانين العثمانية، فلقب بالقانوني،بلغت مدة حكمه ٤٦ سنة توفي في ميدان المعركة في المجر سنه ٩٧٤هـ[٩]

أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني"، قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها القسطنطينية تلعب دورَ صلةِ الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي، حيث بلغت الدولة في عهده أوج اتساعها وعظمتها،فقد استولت الدولة العثمانية على البلاد الأوروبية التالية: هـنغاريا، بلغراد، ألبانيا، اليونان، رومانيا، صربيا، بلغاريا. إضافة إلى معظم الشرق الإسلامي، وهنا وصلت الإمبراطورية العثمانية أقصى مداها. فقد امتدت من المجر إلى أسوان بالقرب من شلالات النيل، ومن نهر الفرات وقلب إيران إلى باب المندب جنوبي الجزيرة العربية.

---

[٦] الدولة العُثمانية عَوَامل النهـوض وأسباب السُّقوط، لعلى محمد محمد الصلابى،١٧٦/١

[٧] موجز التاريخ الإسلامي منذ عهـد آدم عليهـ السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر، المؤلف: أحمد معمور العسيري،٣٣١/١

[٨] المرجع السابق، ٣٣١/١

[٩] ينظر: هـدية العارفين، البغدادي، ج ١، ص ٤٠٢

وبعد انتهاء عهد السلطان سليمان، والذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.[١٠]

السلطان سليم الثانى: ابن السلطان سليمان الأول القانوني كان ولي العهد منذ مقتل أخيه الكبير مصطفى خان، ارتقى العرش وهو ابن٤٢ سنة، وكان شهماً شجاعاً ذكياً مائلاً إلى التقوى ووجوه الخير، وكان يقرب العلماء ويكرمهم، ويحب الصالحين، عقد معاهدات مع كثير من الدول وهو الذي وضع حجر الأساس لجامع سليمية في أدرنة، وكان السلطان محل احترام أهل العلم وتقديرهم، توفي سنة ٩٨٢ هـ.

وعلى العموم فإن الحكم العثماني في القرن العاشر الهجري كان سطحياً واعتمد على السلطة العسكرية والسيطرة الإقطاعية ولم يرتق إلى أي تغيير أو تبديل يؤدى إلى البناء والازدهار.

أثر الحالة السياسية فى حياة الإمام أبى السعود:

كان لأبى السعود دور المصلح الاجتماعي ؛ لما قام به من اصلاحات وتنظيمات لمعالجة الناحية الإقطاعية والشئون الاجتماعية والاقتصادية، مما أدى إلى استقرار الأحوال السياسية نسبياً بعد أن اضطرب أمر الافتاء بانتقالها من يد إلى يد، إلا أن أبا السعود مكث نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة التامة والبراعة في الفتوى والتفنن فيها[١١].

الفرع الثانى:الحالة العلمية والاجتماعية

استفاد أبو السعود من العلماء الذين عاصرهم وقد تبين لنا ذلك على ما ذكره بنفسه في صورة الإجازة للشيخ عبد الرحمن المشتهر بشيخ زاده [١٢]نقل عنه رحمه الله أنه

---

[١٠] موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر، أحمد معمور العسيري،٣٣٢/١

[١١] ينظر مقدمة كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبى السعود ص ٧٥ / ٧٨.

[١٢] الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ جمال الدين المشتهر بشيخ زادهـ ولد رحمهـ اللهـ في قصية مرزيفون، ودخل وهو شاب في زمرة أرباب الاستعداد فاجتمع على أفاضل عصرهـ، وهو مدرس بمدرسة قاسم باشا بقصية أبى أيوب الأنصارى فقام على أقدام الأقدام واهتم بتحصيل المعارف غاية الهتمام فمهر في العلوم العربية والفنون الأدبية وتميز في الحديث والتفسير وعلوم الوعظ والتذكير وعين لهـ وظائف الوعظ والتذكير في عدد من المساجد، توفى سنة إحدى وسبعين وتسعمائة، كان رحمهـ اللهـ من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء، ينظر:العقد المنظوم ١/ ٣٦٢.

قال مرة قرأت على والدي الشيخ محى الدين حاشية التجريد للشريف الجرجاني من أول الكتاب إلى أخره مع جميع الحواشي المنقولة عنه وقد قرأت عليه شرح المواقف له أيضاً بالتمام والكمال.

ولما صار من المولى جلى قلد التدريس في مدرسة كنقري بخمسة وعشرين [١٣] فتردد في القبول فنقل في أثنائه إلى مدرسة اسحق باشا ببلدة اينة كول بثلاثين ولما انفصل عنها قلد بعد عدة أشهر مدرسة داود باشا بمدينة قسطنطينية بأربعين ثم نقل عنها إلى مدرسة على باشا بالمدينة المزبورة بخمسين ولما بنى الوزير مصطفى باشا مدرسته التي بقصبة ككيويزة نقل إلي مدرسة السلطان محمد بمدرسة بروسا ثم نقل إلى إحدى المدارس الثمان ثم قلد رحمه الله قضاء بروسا ثم نقل إلى قضاء القسطنطينية المحروسة ثم نقل إلى قضاء العسكر في ولاية روم إيلى ودام عليه مدة ثماني سنين وقد ربى بزلال إحسانه دوحة العلو والفضائل وقلد جيد الزمان بخرائد أفضاله وهو عاطل فعادت روضة المعارف إلى مائها ونمائها ولما انتقل المولى المرحوم عدة أفاضل حسنة العصر والأوان المولى سعد الله بن عيسى بن أمير خان[١٤].

إضطرب أمر الفتوى وانتقل من يد إلى يد ول يثبت سقف بنيته على عمد إلى أن سلم زمامه إليه وألقيت مقاليده لديه، واشتغل بتشييد مبانيه أحسن الاشتغال وسيقت له الركائب من كل قطر وجانب وازدحم على بابه الوفود من أصحاب المجد والجدود وشملت شمائله العامة الخاصة والعامة وذلك سنة اثتنين وخمسين وتسعمائة ودام على هــذه الفعلة الحسنة نحواً من ثلاثين سنة وكتب الجواب مراراً في يوم واحد على ألف رقعة مع حسن المقاطع والمقاصد وقد سارت أجوبته في جميع العلوم في الآفاق مسير النجوم وجعلت رشحات أقلامه تميمة نحر لكونها يتيمة بحر فيا له من بحر وكان يكتب الجواب على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب واقعاً على لسان العرب والعجم والروم من المنثور والمنظوم وقد أثبت منها ما يستعذب الناظر ويستحسنه أرباب البصائر[١٥].

---

[١٣] يقصد عمر الشيخ في ذلك الوقت.

[١٤] سعد اللهــ بن عيسى بن أمير خان ٩٤٥، المولى الكامل الفاضل المعروف بسعدى جلى، قاض حنفى من علماء الروم، أصلح من ولاية قسطمونى، منشأهــ ومولدهــ بالأستانة، عمل في التدريس وولى القضاء مدة ثم تولى الإفتاء إلى آخر حياتهــ صنف حواشى مفيدة على تفسير البيضاوى. ينظر:طبقات المفسرين أحمد بن محمد الأدنة ٣٧٧/١.

[١٥] الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ١ / ٤٤١.

المطلب الثاني:

التعريف بشخصية الإمام أبي السعود:ويشتمل على ثلاثة فروع :

الفرع الأول:اسمه ولقبه وولادته ونشأته.

هو محمد بن محيي الدين محمد بن مصطفى العمادي الإسكَلِيبي، المعروف باسم خوجة جلبي[١٦]، من علماء الترك المستعربين، ولد في إسكليب[١٧] غربي أماسية، واشتهر بكنيته: أبو السعود، وهو من أكابر العلماء والقضاة، وأبرز شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية .أما تسمية العمادي، فاختلفت المصادر في سببها، فمنهم من جعلها نسبة إلى جده الأعلى عماد الدين، الذي هـاجر من تركستان[١٨].

مولده :

أمّا مولده، فقد ذكرت المصادر الّتي ترجمت لحياته أنّ تأريخ ولادته هـو سنة (٨٩٨) للهجرة الموافقة لسنة (١٤٩٣) م[١٩]، وقد قيل غير ذلك[٢٠].

---

[١٦] العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ذيل الشقائق النعمانية، عليّ بن لالي بالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥. ص ٤٤٠، تأريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد اللهـ العيدروسيّ، تحقيق : أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت،ط١،٢٠٠١. ص ٣١٩، وسقط منهـ اسم والدهـ محمد محيي الدين، وشذرات الذهـب في أخبار من ذهـب،لابن العماد،تحقيق :محمود الأرناؤوط،دار ابن كثير، دمشق، بيروت،ط١، ١٩٩٣ م، ج ١، ص ٥٨٤، وهـدية العارفين،للبغدادى، أعادت طباعتهـ دارإحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .ج ٢، ص ٢٥٣. ولهـ ترجمة جيدة في :دائرة المعارف، إشراف المعلم بطرس البستاني وآخرين، بيروت، ١٩٦٢ م، ج ٤، ص ٣٤٢، وكتب لهـ أحمد صدقي شقيرات ترجمة وافية في، كتابهـ :تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهـد العثماني،المؤلف، إربد، الأردن،ط١ ٢٠٠٢ م .ج ١، ص ٣٨٦، إلا أنهـ وقعت منهـ بعض الأخطاء، التي أشرت إلى واحد منهـا في أثناء الدراسة، وجاء في كتابهـ :خواجهـ جلبي يعني سيد المعلمين.

[١٧] إسكليب :بلدة تقع في شمال الأناضول، في وسط مجموعة من القلاع العثمانية التي فتحت في وقت مبكر من العهـد العثماني، وتتبع اليوم قضاء جوروم، وهـي بالقرب من أماسية وقسطموني ينظر: دائرة المعارف الإسلامية،فنسنك وآخرون، ترجمة إبراهـيم زكي خورشيد وآخرين، كتاب الشعب، القاهـرة، ١٩٣٣ م، ج ١، ص ٤٨٩ و ج ٤، ص ٣٨٧، وتاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام،لشقيرات، ج ١، ص ٣٨٧

[١٨] ينظر :تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، :شقيرات، ج ١، ص ٣٨٧

[١٩] الأعلام:خير الدين الزركليّ ٧ / ٥٩، ومعجم المؤلّفين تراجم مصنّفي الكتب العربيّة :عمر رضا كحالة ١١ / ٣٠١.

[٢٠] العقد المنظوم، ص ٤٤٠، وفي النور السافر :ولد في تاسع عشر صفر، سنة ست وتسعين وثماني مائة، ص ٣١ .والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،للشوكانى، تحقيق :حسين عبد اللهـ العمري، دار الفكر المعاصر، بيروت،ط١، ١٩٩٨ م .ص ٢٧٣:"ومولدهـ سنة تسعمائة."

وقد نشأ رحمه الله في أسرة علميّة ودينيّة، وعاش في رعاية والده الّذي كان أحد علماء عصره آنذاك ومتصوّفيه، وقد كان لأسرته الأثر الكبير في نزوعه إلى العلم والمعرفة ورغبته فيهما، فقد كان أبوه محيي الدين أفندي من كبار العلماء، ومن المتصوفة المشهورين، وكان مقرباً من السلطان يحبه ويقربه، حتى سمي بين الناس بشيخ السلطان [٢١]، وكانت والدته أيضا من بيت علم وفضل[٢٢] دفعه أبوه إلى حلقات العلم، فحفظ كتباً منها المفتاح، فامتاز في صغره بفصاحة العرب العرباء[٢٣]، ونشأ عالما واسع التقرير، غزير المعرفة، بدأ اشتغاله في التدريس في مدرسة كنقري، ثم نقل إلى مدرسة إسحاق باشا ببلدة إينه كول ولما انفصل عنها قّلد بعد عدة أشهر مدرسة داود باشا بمدينة قسطنطينية، وبعدها نقل إلى مدرسة علي باشا، ومنها نقل إلى مدرسة مصطفى باشا، ثم إلى مدرسة السلطان محمد بمدينة بروسه[٢٤].

ثم دخل في القضاء وعلا شأنه، وبعد صيته، فقلد قضاء برسه، ثم قضاء قسطنطينية، ثم قضاء العسكر في ولاية روم إيلي، ودام عليه ثماني سنوات[٢٥]، وفي سنة ٩٥٢ هـ تقّلد الإفتاء، فصار شيخ الإسلام، ومفتي الدولة العثمانية، وظل يلي هـذا المنصب بقية حياته، في عهد سليمان الأول وخليفته سليم الثاني [٢٦] يقول مؤلف (العقد المنظوم):إن أمر الفتوى قد اضطرب، حتى اشتغل أبوالسعود بتشييد مبانيه أحسن

---

[٢١] الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، طاشكبرى زادهـ،دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥ م . ص ٢٠٦.

[٢٢] النور السافر،للعيدروسى، ص ٣١٩

[٢٣] المصدر نفسهـ، ص ٣١٩

[٢٤] العقد المنظوم، ص ٤٤٠

[٢٥] المصدر نفسهـ، ص ٤٤١، شذرات الذهـب، لابن العماد، ج ١٠، ص ٥٨٤

[٢٦] السلطان سليمان الأول القانوني ابن السلطان سليم خان بن بايزيد خان العثماني، ولد سنة٩٠٠هـ، وكان أديباً، لهـ ديوان شعر تركي، عني بتطبيق القوانين العثمانية، فلقب بالقانوني، بلغت مدة حكمهـ ٤٦ سنة توفي في ميدان المعركة في المجر سنة ٩٧٤ هـ، ينظر: هـدية العارفين، البغدادي، ج ١، ص ٤٠٢،السلطان سليم الثاني، ابن السلطان سليمان الأول القانوني كان ولي العهـد منذ مقتل أخيهـ الكبير مصطفى خان، ارتقى العرش وهـو ابن٤٢ سنة، وكان شهـماً شجاعاً ذكياً مائلاً إلى التقوى ووجوهـ الخير، وكان يقرب العلماء ويكرمهـم، ويحب الصالحين، عقد معاهـدات مع كثير من الدول وهـو الذي وضع حجر الأساس لجامع سليمية في أدرنة، وكان السلطان المترجم محل احترام أهـل العلم وتقديرهـم، توفي سنة ٩٨٢ هـ .(ينظر:الدولة العثمانية لدحلان أحمد بن زينى) من كتاب الفتوحات الإسلامية، المكتبة الحقيقية، استانبول، ١٩٨٦ م، ص ١٧٦.

الاشتغال، وسيقت إليه الركائب من كل قطر وجانب، وازدحم على بابه الوفود من أصحاب المجد والجدود، ثم قال :ودام على هــذه الفعلة الحسنة نحواً من ثلاثين سنة [٢٧]، وظلَّ مقرباً من السلطان سليمان الأول، وحصل له من المجد والإقبال والشرف ما لا يشرح بالمقال [٢٨]، وصار مرجع الدولة بالإفتاء، وصاحب الحظوة في التعيين والعزل. وقد أشار الّذين ترجموا له إلى أنّ أبا السعود كان حنفيّ المذهب [٢٩]. حيث إنه كان كثير الإحاطة بالأصول والفروع، وأما عن منزلته في المذهب، فقد بينها اللَّكْنوي في ترجمته فقال: "انتهت إليه رياسة الحنفية في زمانه... وكان يجتهد في بعض المسائل ويخرج ويرجح بعض الدلائل، وله في الأصول والفروع قوة كاملة، وقدرة شاملة،وفضيلة تامة، وإحاطة عامة"[٣٠].

الفرع الثانى: مكانته وأثاره العلمية رحمه الله وثناء العلماء عليه.

منزلته وثناء العلماء عليه:

ظهر مما سبق جانب من منزلة أبي السعود، فقد كان مفتي الأنام، وصاحب الحظوة في الدولة العثمانية في زمانه، وأشهر شيوخ الإسلام فيها، وظل مفتي التخت العثماني مدة ثلاثين سنة، وكان إليه المرجع في حل المشكلات، وكان صاحب المشورة الأثير عند السلطان سليمان القانوني، ومن بعد عند ولده سليم الثاني، وهذه المنزلة هــي التي جعلت أبا السعود ينجح في تطويع القانون الإداري في الدولة العثمانية للشريعة الإسلامية، واستطاع بما لديه من حظوة عند السلطان سليمان، أن يتم ويحكم تطورا في البناء القضائي في الدولة، فجعل اختصاص القاضي مستمداً من مرسوم السلطان بتعيينه ومن ثم يجب اّتباع توجيهاته في تطبيق الشريعة [٣١].

وكان أبو السعود عالماً حافظاً، مناظراً يقطع الخصوم، وكان السلطان سليمان يجمع العلماء

---

[٢٧] العقد المنظوم، ص ٤٤١

[٢٨] شذرات الذهــب، لابن العماد، ج ١٠، ص ٥٨٤

[٢٩] أعلام الأخبار من فقهــاء ومذاهــب النعمان المختار (مخطوط) ٤٠٧، نقلاً عن:أبي السعود ومنهجه في التفسير ١٦.

[٣٠] الفوائد البهــية في تراجم الحنفية، محمد عبد الحى اللكنوى، تحقيق: أحمد الزعبى، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨ م، ص

[٣١] دائرة المعارف الإسلامية، فنسنك وآخرون، ج ١، ص ٤٨٩

بمجلسه، ويأمرهم بالمناظرة، فيغلب أبو السعود، ويفحم خصمه، ويتبين فضله، ويستحق التقديم[٣٢]، وقد أثنى عليه العلماء ثناء عظيماً ينبئ عن منزلته الخطيرة، ومكانته الرفيعة، وسأعرض جانباً من أقوال العلماء فيه، لنستبين هــذه المنزلة العالية:

قال الشيخ قطب الدين المفتي (ت ٩٨٨) هــ [٣٣]،عن أبي السعود" :وقد اجتمعتُ به في الرحلة الأولى، وهو قاضي اسطنبول، سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة، فرأيته فصيحاً، وفي الفن رجيحاً، فعجبت لتلك العربية ممن لم يسلك ديار العرب،ولا محالة أنها منح الرب"[٣٤]

وقال علي بن بالي المعروف بمنق" :تفرد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، وضاقت عن إحاطته صدور الحصر والحد"[٣٥]

وقال البوريني :"بحيث إنه صار ابتهاجاً في وجه الدولة العثمانية، وابتساماً في ثغر السلطنة السليمانية)"[٣٦]

وقال عنه الشوكاني:"وكان قد تناهت عظمته في الممالك الرومية، وصار المرجع في جميع ما يتعلق بالعلم"[٣٧]

وقال عنه الأَدنَروي :"هو الغاية القصوى، هــو الذروة العليا، سلطان المفسرين، مقدمة جيش المتأخرين، مفتي الأنام، مفني البدع والآثام"[٣٨]

وقال نجم الدين الغزي :"هو أعظم موالي الروم وأفضلهم، لم يكن له نظير في زمانه بالعلم والرئاسة والديانة"[٣٩]

ثقافته ومكانته العلميّة :

---

[٣٢] النور السافر،للعيدروس، ص ٣١٩

[٣٣] الشيخ الإمام قطب الدين، محمد بن أحمد المكي النَّهــروالي الحنفي، مؤرخ عالم، أحد المدرسين بالحرم الشريف، برع بالفقهــ والتفسير والأصلين، وكان أديباً شاعراً، وكان يكتب الإنشاء لأشراف مكة، تعلم بمصر، ونُصب مفتياً بمكة، لهــ :الإعلام بأعلام بلد اللهــ الحرام والبرق اليماني في الفتح العثماني، توفي سنة٩٨٨ هــ .ينظر:البدر الطالع، للشوكاني، ص ٥٧٦و كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، أعادت طباعتهــ دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .ج ١، ص ١٢٦

[٣٤] النور السافر،للعيدروس ص ٣٢٠

[٣٥] العقد المنظوم، ص ٤٤٣

[٣٦] تراجم الأعيان، ج ١، ص ٢٣٩

[٣٧] البدر الطالع، ص ٢٧٣

[٣٨] طبقات المفسرين، للأدنروي، تحقيق :سليمان بن صالح الخزي،مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ،١٩٩٧،ص٣٩٨

[٣٩] الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للغزى، تحقيق :جبرائيل سليمان جبور، جامعة بيروت الأمريكية، المطبعة البولسية، بيروت، ١٩٥٩ م، ج ٣، ص ٣٥

وصف أبو السعود بكلّ ما هــو حسن، إذ كان على قدر كبير من العلم والثقافة، وكان حاضر الذهن سريع البديهة[٤٠]. والحقّ أنّه كذلك، فقد كان رحمه الله إماماً فاضلاً وعالماً جليلاً، غزير التأليف، ذا إحاطة تامّة بالعلوم والمعارف الإسلاميّة، إذ ما من علم من علومها، إلاّ وله فيه حظّ وافر، وقد دلّ على ذلك مؤلّفاته المتعدّدة والمتنوّعة بحسب مواهبه واختصاصه في مجال أصول الفقه والقراءات، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وغير ذلك. فضلاً عن أنّه كان ملمّا بعلوم اللغة العربيّة، كالنحو والصرف والاشتقاق والبلاغة بعلومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)[٤١]، وخير دليل على ذلك تفسيره الّذي بين أيدينا والبحث بصدد دراسته. فقد نال إعجاب المؤرّخين والمعاصرين له فأثنوا عليه، ومن هــؤلاء الشيخ محمود بن سليمان الكفاويّ الحنفيّ (ت ٩٩٠ هــ)، إذ قال فيه:" لم تر العيون مثله في العلم والعرفان، وكان يجتهد في بعض المسائل، ويخرّج ويرجّح بعض الدلائل، وكان إذا لم يجد واقعة الفتوى وجوابها في الكتب المتداولة المعمولة من المتون والشروح والأصول والنوادر والواقعات والفتاوى، يقابل في الوجوه الّتي لاحت له، ويرجّح واحداً من تلك الوجوه، ويكتب الجواب على رأيه الرصين، وله في الفروع والأصول قوّة كاملة ...[٤٢]

أخلاقه وحليته:

نشأ أبو السعود، في حجر أبيه، الذي اتخذ من التصوف والسلوك منهاجاً، وجمع بين الطريقة والشريعة مع التضلع في العلوم[٤٣]، فنهل من هــذا المعين، وكان من أكثر وراده إلحاحاً على العبّ منه، فكان مع ما وصل إليه في الدولة من مكانة، وما تقلده من وظائف، ومع قربه من السلاطين والولاة متواضعاً،" محافظاً على الورع والديانة، مثابراً على التقوى والأمانة[٤٤]، وكان مستقيماً في سلوكه، متّبعاً حدود الشرع في قضائه، فحق له أن يكون قدوة العلماء العاملين،الحريصين على الأمة، المنافحين عن حياض الدين، المتربصين بأعدائه، المقررين لأحكام الله في الدولة[٤٥]، وكان خيراً، حسنَ المجاورة، وافرَ الإنصاف، سالمَ الفطنة، جيدَ القريحة، شديدَ التحري في فتاويه[٤٦].

---

(٤٠) الأعلام ٧ / ٥٩

(٤١) كشف الظنون ١ / ٤٣٣، والتفسير والمفسّرون ١ / ٢٦٥

(٤٢) أعلام الأخيار من فقهــاء ومذهــب النعمان المختار٤٠٧، نقلاً عن أبي السعود ومنهــجهــ في التفسير

(٤٣) العقد المنظوم، ص ٤٤٠

(٤٤) تراجم الأعيان، للبوريني ج ١، ص ٢٤١

(٤٥) قال العيدروس في النور السافر، ص ٣٢٠ عن أبي السعود :"وكان سلوكهــ لا عوج فيهــ ولا أمتا.

(٤٦) الكواكب السائرة، للغزي، ج ٣، ص ١٦

والتواضع من أبرز صفات أبي السعود، وما هــذا إلا لتمكن التربية الصالحة في نفسه، فهو يعرف فضل من سبقه، ويقدر مكانتهم ويّتهم نفسه ويصغرها إذا قيست بهم .فهذا السلطان سليمان يسأل المولى ابن كمال باشا[٤٧]، لو فرض أنك كنت في زمن المحقق التفتازاني[٤٨]، أو زمن المدّقق السيد شريف الجرجاني [٤٩] ما كنت تكون لهما؟ فقال :لو كانا في زمني لحملا لي الغاشية [٥٠]فاستكثر السلطان منه ذلك وأنكره، ثم سأل أبا السعود ذات السؤال، فأجاب :كنت أكون تلميذاً قابلاً، فاستحسن السلطان جوابه[٥١]، وفي هــذا دلالة على تواضعه، وحسن ظّنه بالعلماء، وتقديره لهم، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل.

الفرع الثانى:عقيدته ومذهبه:

صاحب كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم حنفى على مذهب الخليفة النعمان[٥٢] .

---

(٤٧) أحمد بن سليمان بن كمال باشا الحنفي، من علماء الترك المستعربين، شيخ الإسلام، د رس في أدرنة :ثم صار قاضياً فيهــا، ثم صار مفتياً بالأستانة إلى أن مات، كان كثير الشغل بالعلم لا يفتر، كتب قريباً من مئة رسالة .وله تصانيف كثيرة منهــا :الآيات العشر في أحوال الآخرة والحشر، والتعريفات، توفي سنة ٩٤٠هــ. ينظر :الشقائق النعمانية، لطاشكبري زاده، ص٢٢٦، وهــدية العارفين،للبغدادي ج١، ص ١٤١

(٤٨) مسعود بن عمر، المعروف بالسعد التفتازاني، وصفه السيوطي ت ٩١١ هــ بالإمام العلامة .عالم بالّنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصلين والمنطق وغيرهــا .أخذ عن جّلة العلماء، وتقدم في الفنون، وطار صيتهــ، قال ابن خلدون" :ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هــراة من بلاد خراسان، يشهــر بسعد الدين التفتازاني، منهــا في علم الكلام وأصول الفقهــ والبيان، تشهــد بأن له ملكة راسخة في هــذهــ العلوم ."لهــ المطول، والمقاصد .وكتبه كلها نخب .توفي سنة ٧٩١ ه بسمرقند .. ينظر:، المقدمة،لابن خلدون ص ٣٠٢، و بغية الوعاة،للسيوطي ج ٢، ص ٢٨٥

(٤٩) علي بن محمد، السيد الشريف الجرجاني، المحقق الحنفي، ولد بجرجان سنة ٧٤٠ هــ، وكان بينه وبين السعد التفتازاني مباحثات ومحاورات، وكان علامة في المعقول .لهــ شرح المواقف، والتعريفات .توفي سنة٨١٦ هــ. ينظر :بغية الوعاة، للسيوطي، ج ٢، ص١٩٦، وهــدية العارفين،للبغدادي ج١، ص ٧٢٨

(٥٠) الغاشية :غطاء السرج.، .لسان العرب،لابن منظور ط ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤ م، ج ١٥، ص ١٢٦، المادة غشا

(٥١) تراجم الأعيان، للبوريني ج ١، ص ٢٤٠

(٥٢) أبو حنيفة النعمان بن ثابت، مولى لتيم اللهــ بن ثعلبة، ولد سنة ثمانين ومات ببغداد سنة خمسين ومائة وهــو ابن سبعين سنة ينظر طبقات الفقهــاء للشيرازى، تحقيق سامى عباس، دار الرائد العربى، بيروت لبنان ط١، ١٩٧٠ ص ٨٥، تهــذيب الأسماء واللغات للنووى ٢/ ٢١٦.

قال صاحب كتاب المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات :" فهو على طريقة المؤولة وحاد عنها، وتبع الرازي في تصرفه مع الصفات بل ينقل ترجيحات الرازي ويقرها، ولا أظن أنه شم رائحة مذهب السلف[٥٣]، وهذه عادة كثير من الاتراك الحنيفين فإنهم يجمدون على المذهب، وعلى العقيدة الاشعرية[٥٤] أو الماتريدية [٥٥]، ولم يتيسر للأتراك من يعلمهم المذهب السلفي [٥٦].

ما قاله الذهبي: " إن أبا السعود يعتمد في تفسيره على تفسير الكشاف والبيضاوي وغيرهما ممن تقدمه، غير أنه لم يغتر بما جاء في الكشاف من الاعتزالات. ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها، مع جريانه على مذهب أهل السنة في تفسيره [٥٧].

قال الدكتور صبحي الصالح: " أما أبو السعود فمع تقريره الأدلة على عقائد أهل السنة، يعنى بتبيان المباحث المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم، وأسلوبه في ذلك مشرق وتذوقه للبلاغة القرآنية سليم " [٥٨].

والراجح ما قاله الذهبي: أن أبا السعود على مذهب أهل السنة في تفسيره.

الفرع الثالث: شيوخه وأقرانه و تلاميذه.

<u>شيوخه :</u>

تتلمذ الإمام ابي السعود لجلة من علماء عصره، وكان لهم أثراً عظيماً في تكوين شخصيته العلمية والثقافية، إلا أن المصنفات التي قامت بالترجمة لحياته، لم تمدنا

---

[٥٣] وهم الداعون إلى العودة إلى سيرة السلف الصالح وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل،والإمام ابن تيمية، والسلفى هو من يرجع إلى الكتاب والسنة في جميع شؤون حياتهـ، موسوعة الفرق والجماعات والم١اهب الإسلامية، لعبد المنعم الحفنى، دار الرشاد القاهرة ط١، ١٤١٣ ص ٢٤٥.

[٥٤] هم أصحاب الحسن على بن اسماعيل الأشعرى وطريقتهم التمسك بكتاب اللهـ وسنة نبيهـ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، المصدر السابق من ٥٠ ٥٢.

[٥٥] فرقة كلامية بدعية، تنسب إلى أبى منصور الماتريدى، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاجة خصومها من المعتزلة والجهمية وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية. ينظر:الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامى، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ط٤ ١٤٢٠، ١/ ٩٥.

[٥٦] المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، الشيخ محمد بن عبد الرحمن المعزاوى مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٢٣٤/٣.

[٥٧] التفسير والمفسرون للذهبى، ١/ ٢٤٨.

[٥٨] مباحث في علوم القرآن، صبحى الصالح، دار العلم للملايين طى ٢٤، ٢٠٠٠، ص٢٩٣.

بالمعلومات الكافية عن طبيعة العلاقة بينه وبين شيوخه، ومن شيوخه[٥٩] الذين وقفت عليهم من خلال الاستقراء هــم:

١) والده الشيخ محي الدين محمد الإسكليى (ت ٩٢٠).

٢) عبد الرحمن بن على بن المؤيد، المعروف بمؤيد زاده (ت ٩٢٢).

٣) محي الدين، محمد بن محمد الفوجى الحنفي (ت ٩٣١).

٤) سعد الله بن عيسى جلبي افتدى (ت ٩٤٥).

٥) عبد القادر بن محمد قادري جلبي (ت ٩٥٥).

تلاميـــــذه:

تتلمذ على يد الإمام أبى السعود علماء وصلوا إلى المناصب السامية، وكانوا شيوخاً وقضاة وأهل فتياً [٦٠]، وأول هــؤلاء العلماء أبناءه الثلاثة [٦١]، محمد واحمد ومصطفى، الذين تخرجوا به.

١) محمد ابن المفتى أبى السعود (ت ٩٧١).

٢) حمد ابن المفتى أبى السعود (ت ٩٧٠).

٣) مصطفى ابن المفتى أبى السعود(ت ١٠٨).

ومن التلاميذ العلماء الملازمين للمولى أبى السعود [٦٢]

٤) عبد الرحمن ابن الشيخ جمال، شيخ زاده.

٥) المولى محمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم (ت ٩٥٥).

٦) المولى عطا الله معلم السلطان سليم خان (ت ٩٧٩).

٧) المولى محي الدين، المشتهر بنكسارى زاده (ت ٩٨١).

٨) المولى محمد بن احمد بن بزن (ت ٩٨٣).

٩) المولى محمود المشتهر بمعلم زاده (ت ٩٨٧).

والحديث عن أخلاق الرجل، لا بد أن يسلمنا إلى الحديث عن تهمة تناقلها مترجموه، وعول عليها ذاموه، وهي أخذهم عليه الميل إلى السلاطين وحب الرياسة، قال

---

[٥٩] تراجم هــؤلاء الشيوخ فى الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية،طاشكبرى زادة،ار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٧٥، ص (٢٠٦، ١٧٦، ١٨٢، ٢٦٥، ٢٦٤) على التوالى.

[٦٠] العقد المنظوم ص ٤٤٣

[٦١] تراجم هــؤلاء في العقد المنظوم ص (٣٦٤، ٣٥٤) على التوالي

[٦٢] تراجم هــؤلاء التلاميذ في العقد المنظوم ص (٣٩٠، ٣٨٤، ٤٠٧، ٤٣٧، ٤٨١، ٤٩٥) على التوالي

علي بن بالي" :غير أن فيه نوع مداهنة، واكتراث[٦٣] بمداراة الناس، وفيه الميل الزائد والنعومة إلى أرباب الرياسة والحكومة[٦٤]، نعم كان ثمة اتصال قوي بين أبي السعود والسلطانين سليمان وسليم، وكان محلّ توقير واحترام عندهما، وكان ناصحاً أميناً، ومفتياً مستأمناً، يحمل السلاطين على تطبيق الشريعة في الدولة العثمانية، وله إصلاحات عظيمة في النظام القضائي، كما مر، وهذه المنزلة هـــي التي جعلت أبا السعود ينجح في تطويع القانون الإداري في الدولة العثمانية للشريعة الإسلامية.

فهل استغل أبو السعود علاقته بالسلاطين لمنفعته ورغباته، وهو الذي لم يكن متكّلفاً في لباس ولا طعام؟ وهل حمل أبو السعود السلاطين بهذه العلاقة على ما فيه خير الأمة أو لا؟ إذن، فما المداهنة التي يأخذها هـــؤلاء على الرجل؟ ولِم لَم يبينوا صورة من صور هـــذه المداهنة؟ وأنا لم أر من آثار اتصاله بالسلاطين إلا الخير، والعمل على تطبيق شرع الله في الدولة العثمانية، وهذا أساس عمله وقوام وظيفته، وهو القاضي والعالم والمفتي وشيخ الإسلام، وهل من مؤاخذة على العالم إذا اتصل بولي الأمر، فنصحه وحمله على فعل الخير، وحبب إليه تطبيق الشرع؟ فيكون بذلك من بطانة الخير الداعية إلى الصلاح، وهل يصنع إمام الهدى إلا بطانة صالحة؟ وهل على العالم أن يجلس في الزوايا، ويترك الأمة تخبط خبط عشواء في دياجير[٦٥] الجهل والظلم؟ أو يقوم ناصحاً مرشداً للخاصة والعامة، ويكون بهذا عالماً عاملاً، فإن ثمرة العلوم العمل بالمعلوم.

ثم إن فتاوى أبي السعود تدلّ على استقلاله الفكري، ولا تدل على أنه كان يداهن الناس خاصتهم وعامتهم، ومنها فتيا القهوة المشهورة في الدولة العثمانية، فقد أفتى أبو السعود بتركها سداً للذريعة، وخوف التشبه بالكفار، وأما عن اجتماع الناس عليها في المقاهي حيث تشيع الغيبة والفسق، فقد حرمه قطعاً، هـــذا بعد انتشار المقاهي، وتعلق الناس بها عامتهم وخاصتهم، بل إنه تشدد في هـــذا الأمر حتى أمر بخرق السفن التي

---

(٦٣) العقد المنظوم، ص ٤٤٥

(٦٤) المرجع السابق ص ٤٤٥. وعنهـــ نقلهـــا ابن العماد فى شذرات الذهـــب، ج ١، ص ٥

(٦٥) الدياجيرُ جمعُ دَيْجُور وهـــو الظلام مادة دجر، لسان العرب، لابن منظور، دار صادر بيروت الطبعة الأولى ، ٢٧٧/٤

تحمل القهوة إلى الدولة وإغراقها[٦٦]، فهل هــذا حالُ من يجاملُ الخاصةَ والعامة، ويداهنُ أهلَ الرياسة، ويميل إلى آرائهم على حساب قناعاته وعلمه؟!

وسرعان ما تأثر الناسُ بهذه التهمة، فصارت كل فتوى تصدر عن أبي السعود مردها إلى مجاملة السلاطين ومداهنتهم، ومثال ذلك ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية من أن أبا السعود. "برر[٦٧]لسليم الهجوم على قبرس خارقاً بذلك معاهدة السلام المعقودة مع البندقية "[٦٨].

تصور لنا دائرة المعارف أبا السعود رجلاً يحمل السلطان على خرق المعاهدات ويسوغ له الهجوم على الآمنين بمعاهدات تلزم ذمم المسلمين، وعند ملاحقة هــذه الفتوى، نجد القصة تختلف تماماً، وسأعرض القصة كما جاءت في (المنح الرحمانية) لنقفَ على أمر هــذه الفتوى، قال في (المنح الرحمانية) "صار أهل قبرس يعطون الجزية، ثم صاروا يقطعون البحر على المسلمين،" وإذا أخذوا سفينة من السفائن، قتلوا جميعَ من فيها من المسلمين، لأجل إخفاء خبرها، إلى أن كثر أذاهم، فاستفتى مولانا السلطان رحمه الله الملا أبا السعود رحمه الله في ذلك، فأفتى بأنهم غدروا ونقضوا العهد، وأنه يجوز قتالهم"[٦٩]

فهل حمل أبو السعود السلطانُ على نقض معاهداته، أو داهنه فيما يريد؟ إن السلطان هــو الذي استفتى أبا السعود في قوم غدروا وروعوا الآمنين، وقتلوا الأبرياء من المسلمين، وعلى ذلك أفتى أبو السعود بما رآه حقاً في المسألة، وما في ذلك تسويغ للباطل، أو مجاملة على حساب الحق.

ويبدو لي أن تقلب أبي السعود في المناصب، من مدرس إلى مفتي العسكر إلى شيخ الإسلام ومفتي الأنام، وتقدير السلاطين له[٧٠]، ومنزلته عندهم، حمل بعض

---

(٦٦) تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، لشقيرات ج ١، ص ٣٩٤، الكواكب السائرة، للغزي، ٣٦:٣٥/٣

(٦٧) تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، لشقيرات ٣٩٤/١

(٦٨) دائرة المعارف الإسلامية، فنسنك وآخرون، ٤٨٩/١

(٦٩) المنح الرحمانية، للبكري، ص ١٨٦

(٧٠) وصل من حال هــذا التقدير أن السلطان سليمان القانوني طلب أن تدفن فتاوى أبي السعود أفندي معهــ في قبرهــ، وظهــر هــذا من خلال لوحة منمنمة تصور نعش السلطان سليمان القانوني في طريقهــ إلى القبر، ويتقدمهــ صندوق فتاوى أبي السعود .ينظر لذلك :تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، لشقيرات، ٤/١

المترجمين له على نقده، واتهامه بالميل إلى السلاطين، إذ لم أجد مسوغاً آخر يستدعي هــذا النقد.

الفرع الرابع: آثاره العلمية ومؤلفاته

أثرى العلامة أبو السعود المكتبة الإسلامية والعربية بكثير من المصنفات المفيدة التى اشتهرت وذاع صيتها فى عصره والعصور اللاحقة له كان رحمه الله، يذكره الركبان فى مشارق الارض ومغاربها بما له من الفضل والعلم الذى وهبه الله له، ولقد حاز قصب السبق من أقرانه ولم يقدر أحد أن يجاريه فى ميدانه، ولقد كان اشتغاله بالتدريس وتنقله بين كثير من المدارس وتوليه القضاء ثم الفتوى سببا عائقا له عن التفرغ للتأليف والتصنيف [٧١]، ومع هــذه الأعمال الجسام التى كان يقوم بها العلامة أبو السعود رحمه الله فإنه استطاع أن يختلس بعض الأوقات للكتابة والتأليف.

حيث ذكرت كتب التراجم أن لأبى السعود مصنفات في موضوعات شتى من تفسير وحديث وفقه وقراءات ونحو ولغة وزهد وموعظة وقضاء وتاريخ وشعر وغير ذلك، وكل منها يعد موسوعةً في مجاله مما يدل على إمامته وسعة علمه واطلاعه ووفرة فضله، وقد تنوعت هــذه المصنفات بين رسالة صغيرة لا تتجاوز بضعة أسطر وكتاب واسع في عدة مجلدات ولم يطبع من مصنفاته العديدة سوى تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) الذي بين أيدينا.

ويمكن إدراج عدد من هــذه المؤلفات على النحو التالي :

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، وقد اشتهر باسم (تفسير أبى السعود)
٢) بضاعة القاضي في الصكوك [٧٢]
٣) تحفة الطلاب في المناظرة
٤) حسم الخلاف في المسح على الخفاف
٥) رسالة في الأدعية المنثورة
٦) الفتاوى
٧) قصة هــاروت وماروت [٧٣]

---

[٧١] التفسير والمفسرون للذهــبى ١/ ٢٤٦

[٧٢] نسخة كتب ١١٠١، الخالدية القدس ١١ مخطوط

[٧٣] مقدمة إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبى السعود ١/١٨، ١٧.

٨) قصيدة ميمية في معارضة ميمية أبى العلاء المعرى
٩) غمزات المليح (مخطوط)
١٠) معاقد الطراف فى أول سورة الفتح من الكشاف ولا زال مخطوطا حتى الآن
١١) موقف العقول فى وقف المنقول مخطوط
١٢) تعليقة المختصرة على كتاب البيع مخطوطة
١٣) ثواقب الأنظار فى أوائل المنار مخطوط ١٤
١٤) رسالة فى وقف النقود وجوازه وقد شكك فى نسبتها إليه بعض المحققين

الفرع الخامس: وفاته رحمه الله .

ظل أبو السعود في عزة ومكانة، يتقلب من فضل إلى فضل، حيث ذكر البورينى أنه مات بالقسطنطينية بدار السلطنة العظمى،" وكانت وفاته في سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، كما نقل إلينا بالتواتر، رحمه الله، في دولة السلطان سليم،ابن السعيد الغازي السلطان سليمان[٧٤].

وقد نقل الغزي :أن المفتي أبا السعود توفي بالقسطنطينية في الثلث الأخير من ليلة الأحد، خامس جمادى الأولى، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة) ٩٨٢ هـ.[٧٥]

وجعله العيدروس من وفيات سنة ٩٥٢ هـ [٧٦]، قال الزركلي" :وهو وهم، لأن صاحب الفوائد البهية يذكر أن أبا السعود عاش إلى ما بعد وفاة السلطان سليمان خان، وأن ابنه سليم خان أكرمه إكراماً عظيماً، والسلطان سليمان توفي٩٧٤ هـ [٧٧]، وأكثر من ترجم له يجعله من وفيات سنة ٩٨٢ هـ[٧٨].

---

[٧٤] تراجم الأعيان، ٢٤٤/١

[٧٥] الكواكب السائرة، للغزي، ٣٦/٣

[٧٦] النور السافر، ص ٣١٩

[٧٧] الأعلام، للزركلي،، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٨ م، ط ١٣ ٥٩/٧ الحاشية

[٧٨] العقد المنظوم، ص ٤٤٣، البدر الطالع، للشوكاني، ص ٢٧٣، طبقات المفسرين، للأدنروي ص ٣٩٩،من الابحاث المعاصرة التى كتبت عن الامام أبى السعود القراءات الواردة فى تفسير أبى السعود من اول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الكهف جمعاً وتوجيها لمحمد بن يوسف النعيم يوسف رسالة دكتوراة ص ١٧، ١٨. منهج أبى السعود فى تفسيره من خلال ما كتب عنه عرض ومقارنة ص ١،٢.

المطلب الثالث:

في كتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ويشتمل على ثلاثة فروع:

الفرع الأول: توثيق الكتاب وزمن تأليفه.

أشار أبو السعود في مقدّمة تفسيره إلى أنّه كان ينوي تأليف كتاب في تفسير كلام الله عزّ وجلّ، وتسميته عند تمامه ب (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)[٧٩]، ويدلّ ذلك على أنّ نسبة هــذا الكتاب إليه صحيحة لا غبار عليها، فضلاً عن توثيق المؤرّخين[٨٠] لها.

وتجدر الإشارة إلى حصول اختلاف يسير في عنوان هــذا المؤلَّف، وهو أنّه طبع بعنوان (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، وذلك بتبديل لفظة (الكتاب) الّتي اختارها أبو السعود ب (القرآن). فلم ينقل عنوان التفسير بدقّة على وفق ما اختاره أبو السعود وذكره في مقدّمة تفسيره، ويبدو أنّ وقوع ذلك كان من باب الوهم والخطأ.

أمّا زمن تأليف هــذا التفسير، فلم يشر أبو السعود إلى ذلك في المقدّمة، إنّما أشار إلى أنّه شرع بتأليفه أواخر عمره في زحمة أنشغاله بين القضاء والإفتاء، إذ قال:" لمّا انصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال، ورأيت أنّ الفرصة على جناح الفوات، وشمل الأسباب في شرف الشتات، وقد مسّني الكِبَر، وتضاءلت القوى والقدر، ودنا الأجل من الحلول، وأشرفت شمس الحياة على الأفول، عزمت على إنشاء ما كنت أنويه، وتوجّهت إلى إملاء ما ظلت أبتغيه، ناوياً أن أسمّيه عند تمامه بتوفيق الله وإنعامه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم). فشرعت فيه مع تفاقم المكاره عليّ، وتزاحم المشادّة بين يديّ. [٨١]

وقد أكّد ذلك ما جاء في (كشف الظنون)[٨٢] من أنّه بيّض تفسيره هــذا سنة (٩٧٣ هــ)، أي قبل مماته بتسع سنين.

---

[٧٩] الصفحة ٦.

[٨٠] ينظر:كشف الظنون ١ / ٦٥.

[٨١] إرشاد العقل السليم ١ / ٦.

[٨٢] ينظر :٦٥/١

(ب) سبب التأليف :

أشار أبو السعود في مقدّمة تفسيره إلى الغاية من تأليفه هــذا الكتاب، يمكن إجمالها بثلاث غايات رئيسة، هــي:

١- غاية دينيّة، وهي رغبته في معرفة المنشئ لهذا الكون العجيب وعبادته، والتقرّب إليه سبحانه وتعالى.

٢- التعمّق في كلامه عزّ وجلّ، ومحاولة فهم خفاياه، وبيان ما غمض من ألفاظه ومشكله، وما أشكل من الآيات التكوينية.

٣- محاولة تعرّف الأحكام الشرعيّة وتفصيلاتها، وفهم الفرائض الدينيّة والشعائر الإسلاميّة، لا سيّما أنّه محترف لمهنة القضاء، وهذه المهنة تتطلّب منه الاطّلاع والتعمّق في القضايا الشرعية والإسلاميّة، وذلك من خلال فهم كتاب الله وتفسيره.

وقد تبيّنت هــذه الأغراض من قوله :" يقول العبد الفقير إلى رحمة ربّه الهادي ...:إنّ الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم، وما كان حرف منها مسطوراً، والحكمة الكبرى في تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكوراً، ليست إلاّ معرفة الصانع المجيد، وعبادة البارئ المبدئ المعيد، ولا سبيل إلى ذاك المطلب الجليل سوى الوقوف على مواقف التنزيل ... والتفطّن لمعاني تلك العبارات العبقريّة، وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر، وكنوز آثار التعاجيب والعبر ... فإذن مدار المراد ليس إلاّ كلام ربّ العباد، إذ هــو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيّة، والمفسّر لمشكلات الآيات التكوينيّة، والكاشف عن خفايا حظائر القدس، والمطّلع على خبايا سرائر الإنس، وبه تكتسب الملكات الفاخرة، وبه يتوصّل إلى سعادة الدنيا والآخرة ... وأنّه مع كونه متضمّناً لدقائق العلوم النظريّة والعمليّة، ومنطوياً على دقائق الفنون الخفيّة والجليّة، حاوياً لتفاصيل الأحكام الشرعيّة، ومحيطاً بمناط الدلائل الأصليّة والفرعيّة ... "[٨٣]

الفرع الثاني: منهج الإمام أبو السعود في كتابه وطريقته في التفسير.

اتّبع أبو السعود في تفسيره الألفاظ القرآنيّة منهجاً واضحاً يكاد يكون موحّداً، يتّضح سيره عليه من أوّل التفسير إلى آخره. ولم يشر أبو السعود في مقدّمته إلى طبيعة منهجه، أو طرقه في تفسيره الألفاظ والتراكيب، وقد تبيّن ذلك من خلال دراسة الكتاب.

---

[٨٣] إرشاد العقل السليم ١ / ٣ ٤.

وقد كان لموسوعيّة أبي السعود، ونظرته الشموليّة أثر في تداخل الموضوعات لديه باختلاف أنواعها من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وفقه،وأصول، وقراءات قرآنيّة، وعلوم قرآن كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ. ولم يفصِل بينها. إلاّ أنّه قد يورد موضوعاً منها قبل آخر أو يؤخّره عليه بحسب ما يراه مناسباً ، ولعلّ ما دعاه إلى ذلك هــو الصلة الوثيقة بين هــذه العلوم، فقد يستدعي الأمر في تفسير آية ما وبيان معناها، التوسّل بقرائن دلاليّة كالحاليّة مثلاً المتمثّلة في ذكر أسباب نزول الآية، أو يعمد المفسّر أحياناً إلى استعمال الناسخ والمنسوخ وهو بصدد تفسير الآية وذلك لتوضيح حكم شرعيّ معيّن، وما إلى ذلك. ويمكن أن نحصر سمات منهجه بالآتي :

منهج الإمام في تفسيره

ويمكن بيان منهج العلامة أبى السعود في تفسيره إجمالاً فيما يلى :

١- الاهتمام ببيان النظم القرآني

اهتم العلامة أبو السعود في تفسيره بذكر المناسبة بين الآيات، وبيان شدة ارتباط النظم القرآني بعضه ببعض، فكان يوضح ارتباط الآية بما سبقها وما بعدها، كما كان يهتم بإبراز الارتباط بين أجزاء الآية الواحدة، وقد أشار في مواضع قليلة من تفسيره إلى مجيء آخر السورة مناسبا لما سبق من الآيات.

٢- عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر اعجازه:نلاحظ في تفسير العلامة أبى السعود أنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، فهو يهتم بالنواحي البلاغية وسر اعجازه في نظمه وأسلوبه، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية، والذى يطلع على هــذا التفسير يرى أن صاحبه صب جل اهتمامه لتوضيح المعاني وإزالة الغموض آية آية ليس بالطويل الممل ولا القصير المخل.

٣- الاهتمام بالقراءات القرآنية

اهتم العلامة أبو السعود في تفسيره ببيان القراءات القرآنية حيث امتلأ تفسيره بقراءات كثيرة جدا ولكنه في أغلب الأحوال لا يذكر توجيه هــذه القراءات وانما يوضح المراد منها بقدر المستطاع وأيضا لا ينسب القراءة إلى قارئها فمن يطلع على تفسيره لا يعرف ان كانت هــذه القراءة متواترة أم شاذة.

٤- الاهتمام بالمسائل النحوية

اهتم العلامة أبو السعود بما تحمله الآيات من مسائل نحوية حيث أنه يعرض الآية إذا كانت تحتمل أوجها من الإعراب، ويترك الآية على اختلاف الأعاريب ويرجح واحدا منها ويدلل على رجحانه.

٥- إقلاله من رواية الاسرائيليات

من ناحية أخرى نجده غير مولع بذكر الاسرائيليات في تفسيره بل مقل منها، وإن ذكرها أحيانا فإنه لا يذكرها على سبيل القطع بصحتها والجزم بها بل يصدرها بقوله روى أو قيل مما يدل على ضعفها وإن كان لا يعقب عليها بعد ذلك فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى:" وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون[٨٤] " يقول روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهم الأساور والأطاوق... إلى آخر القصة العجيبة الغريبة[٨٥]، ومع ذلك فلم يعقب عليها ولا بكلمة واحدة ولعله اكتفى بما يشير إليه لفظ روى أو قيل من عدم صحة ما ذكره[٨٦].

٦- إقلاله من ذكر المسائل الفقهية

كذلك نجد العلامة أبو السعود رحمه الله يتعرض في تفسيره لبعض المسائل الفقهية ولكن هــذا قليل جدا، ولا يكاد يدخل في المناقشة الفقهية والأدلة المذهبية بل نجده يسرد المذاهب في الآية ولا يزيد عن ذلك مما جعل استخراجي لأثر المسائل الأصولية في تفسيره قليل جدا لا يقارن بحجم هــذ التفسير وقيمته العلمية.

٧- الاهتمام بآراء غيره من المفسرين

أيضا اهتم العلامة أبو السعود بذكر آراء بعض المفسرين كالإمام القرطبي، والزمخشري والراغب الأصفهاني[٨٧] والإمام الواحدي، وقد ناقش كثيرا من آرائهم ورجح بعضها.

٨- مراعاة تفسيره للمنقول

نجده أيضا اهتم بتفسير الآيات تفسيرا بالمأثور حيث ضمن تفسيره ما أثر عن النبي صل الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم.

٩- الاهتمام بالترجيح بين الآراء والتدليل على صحة ما رجحه.

وهذه هــي أبرز ملامح المنهج الذى سار عليه العلامة أبو السعود مما جعل تفسيره مرجعا مهما يقصده كل باحث في كثير من العلوم وفى هــذا يقول صاحب التفسير والمفسرون:" فالكتاب دقيق غاية الدقة بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به غير مسرف

---

[٨٤] سورة النمل آية ٣٥.

[٨٥] تفسير أبى السعود ٥ /١٤٨.

[٨٦] التفسير والمفسرون للذهــبى ٢٥٠/١.

[٨٧] الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهــانى المعروف بالراغب، ٥٠٢ هــ، أديب من الحكماء العلماء من أهــل أصبهــان سكن بغداد، واشتهــر حتى كان يقرن بالإمام الغزالى من كتبهــ جامع التفسير، الذريعة إلى مكارم الشريعة والمفردات فى غريب القرآن. الأعلام للزركلى ٢/ ٢٥٥.

فيها يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير من جاء بعده من المفسرين وقد طبع هــذا التفسير مرارا [٨٨].

الفرع الثالث:المصادر التي استقى منها كتابه.

يعدّ تفسير أبي السعود من التفاسير الكبيرة والشاملة لشتّى العلوم العربيّة والإسلامية؛ لذا استدعت الطبيعة الشموليّة لهذا التفسير أن يستقي أبو السعود مادّة تفسيره من مواردَ متنوّعةٍ وكثيرةٍ، وقد اختلف في اعتماده المصادر، فقد جعل من بعضها أساساً في مادّة تفسيره على حين استقى الشيءَ القليلَ من بعضها الآخر.

وقد صرّح في مقدّمة تفسيره باعتماده تفسيري (الكشّاف) للزمخشريّ (ت٥٣٨ هــ)، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاويّ (ت ٧٩١ هــ) أساساً في دراسته، مع إشارته إلى أنّه زاد على ما فيهما من علم، وذلك ممّا قرأه أو وجده عند علماء آخرين، معللاً اختياره هــذين التفسيرين من دونهما أي ممّا تقدّم عليهما من تفاسيرَ جليلة بأنّ المتقدّمين " اقتصروا على تمهيد المعاني، وتشييد المباني، وتبيين المراد، وترتيب الأحكام، حسبما بلغهم من سيّد الأنام، عليه شرائف التحيّة والسلام. وأمّا المتأخّرون المدقّقون، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة، وإبداء خباياه الفائقة ؛ ليعاين الناس دلائل إعجازه ... فدوّنوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمّن كلّ منها فوائد شريفة تقرّبها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة يتشنّف بها آذان الأذهان، لاسيّما (الكشّاف) و (أنوار التنزيل)، المتفرّدان بالشأن الجليل والنعت الجميل، فإنّ كلاّ منهما قد أحرز قصب السبق ..." [٨٩] فكأنّه أراد أن أغلب تفاسير المتقدّمين اعتنت بالدرجة الأساس ببيان المعنى اللغويّ للألفاظ القرآنيّة، وصيغها الصرفيّة والأحكام الشرعيّة من دون الالتفات إلى الدلالات الخفيّة التي تكمن وراء المعنى الظاهر، والوقوف على الأسرار البلاغيّة من خلال نظم الألفاظ في السياق، وقد برز الزّمخشريّ في بيانه ذلك، وعنايته بما وراء النصّ من أسرار ودلالات.

---

[٨٨] التفسير والمفسرون للذهــبى، ١/٢٥٠.

[٨٩] إرشاد العقل السليم ١ / ٤

ومن هــنا يتبين لنا أن أبا السعود يعتمد في تفسيره هــذا على تفسير البيضاوي زاد فيه زيادات حسنة من تفسير القرطبي والثعلبي[٩٠] والواحدي والبغوى [٩١]وغيرها ممن تقدمه.

وكان أبو السعود في أغلب الأحيان يصرّح بذكر أسماء الأعلام الّذين أخذ عنهم آراءهم، أو أسماء كتبهم في كثير من النصوص المنقولة عنهم . وفي أحيان أخر لا يصرّح بأسمائهم أو كتبهم مكتفياً بالقول:(إنّه روي) أو (قالوا) أو ما شابه ذلك.
فهو في أكثر الأحيان ينسب الرأي إلى صاحبه، وقد أورد[٩٢] أعلاماً كثيرة ابتداء من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين (رضوان الله تعالى عليهم)، وغيرهم من علماء الأصول والفقه والحديث واللغة والنحو، ممّن نقل عنهم أو استقى منهم علمه، وهذا يعني أنّه كان على قدر من الأمانة العلميّة في ذكر مصادره.

---

(٩٠) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهــيم الثعلبى النيسابورى ٤٢٧ هــ،المفسر المشهــور كان أوحد زمانهــ في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيرهــ التفاسير ولهــ العرائس في قصص الأنبياء يقال لهــ الثعلبى والثعالبى، وهــو لقب لهــ وليس بنسب، ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٧٩، طبقات المفسرين، للسيوطى، ص ٢٨.

(٩١) الحسين بن مسعود بن حمد بن الفراء البغوى الشافعى، صاحب التصانيف، الملقب بركن الدين، وبمحى السنة، محدث وفقيه ومفسر، كان سيدا وإماما وعالما وعلامة، زاهدا قانعا باليسير، من مصنفاته:كتاب الأربعين حديثا الجمع بين الصحيحين، معالم التنزيل توفى بمرو الروذ ينظر طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤٩.

(٩٢) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢ / ١٩١، و ١/ ١٠٧ و ٢/ ٩٣ و ٥/ ٢٥٥ وغير ذلك كثير.